

والمختلف، تضع نفسها في موقع ثورة عميقة، قد تكون السياسة سطحها، لكن أعماقها أبعد من ذلك، لأنها ضاربة فيها وراء السياسي، لأنها قالب للأسئلة الكبرى عن الإنسان والعصر والحياة الاجتماعية" (3).

لقد أراد الروائي أن يسجل موقفه مشرفاً من التحولات، وإن كان مضاداً للتيار السائد آنذاك، والذي أساء إلى رواية "نار ونور" بنقده السلبي والأيديولوجي من دون أن يكلف نفسه حتى حق الالتفات إليها لثغرات أدبية تكشف عن قدرة هذا المبدع على التعامل مع اللغة من موقع العارف لا موقع المتعلم. إن أغلبية هؤلاء النقاد يقفون عند القراءة السطحية التي تقف عند الأحداث كما ترويها الكلمات المقروءة، أما أن يصعد القارئ بعد هذه الأحداث السطحية إلى ما وراءها - إن كان لها وراء - من أبعاد نفسية ورمزية فذلك ما يتعذر على تلك الكتلة، حتى يتصدى لها قارئ ممتاز، فيدرك الماوراء ثم يكتب لسائر القراء ما قد أدركه فعندئذ يكون هذا القارئ الكاتب ناقداً (4).

إن التمازج الذي أحدثه الروائي بين مفهوم الخنزير ومفاهيم أخرى جعل النص مفتوحاً على عدة تأويلات جمالية حاملة لتنوع دلالي يقوي الإحساس، ويمكن الروائي من الحدث إلى درجة تعطيته والتصرف فيه حتى يغدو لا حدث مكوناً لعلائق إسنادية تبرر وجود الخنازير في مجتمع البشر بما يصدر عنه من تصرفات، فإن ما هاج فعل المنكر وعاث في الدنيا فساداً، فكأن سعادته لا تتحقق إلا في تعاسة الآخرين، إن الخنزير هذا، ليس شخصية روائية تقليدية، إنه بالمعنى الحدائني مفهوم للتستر والكتمان لقضاء الحاجات غير المشروعة، وقد يصل إلى حد التلطف والتودد، ولكنه في الأخير خنزير بكل ما حمل الروائي هذه الكلمة من دلالات، فهو يجمع بين اللطف والخطف ويميل إلى التدمير، يدعي الطهر وهو يقوم بالمنكر والفساد. وذلك لا يتركه عبد المالك مرتاض من دون محاكمة "الشبهة مجرد شبهة، كيف تصدق؟ لماذا قتلت فرنسا أباك بالشبهة فقط؟ دل عليه الحركي.. بدون محاكمة أعدموه إنما الأمر يختلف. الثورة عادية على الرغم من أنه خنزير.. لا بد من بينه إنما ستجدها.. ستظهر الحقيقة كل الخنازير بجزء.. يجيء يومك يا اللحاس أو الله من العدالة ما نقلت أنت وأصحابك لازم الثورة تطهر منهم المجتمع، لازم" (5).

أن الخنزير خفاش يمتص دماء الآخرين طفيلي، يأخذه ما ليس من حقه، وهو في نظر الآخرين غول يتمنى تمزيق لحمه إرباً إرباً ولكن عبثاً يحاولون، إنه غول، والغول لا يقبض عليه إنه مفهوم وليس شخصاً، إنه الخوف إنه